بنية القصيدة الجاهلية :

في شعرنا العربي القديم طائفة كبيرة من القصائد – توشك أن تذهب بحظ عظيم منه – تتعدد فيها الأغراض تعدد ألوان الحياة الجاهلية ، ينهج فيها الشعراء جميعا سبيلا واحدة لا يحيدون عنها – أو لا يكادون يحيدون – يستوي في ذلك أوائلهم ومتأخروهم على ما بينهم من اختلاف في التصور والتعبير . وتبدأ كل قصيدة من هذه الطائفة بمقدمة ، وتختلف المقدمات فقد تكون بكاء في الديار ووقوفا عليها ، أو غزلا بالأحباب وحنينا اليهم ، أو وصفا للطيف الطارق وما يطويه من أرض ، أو تهالكا في الشراب وإقبالا نهما على الحياة ، أو توجعا من الشيب وحزنا على الشباب الذي غبر ، أو حوارا يقيمه الشاعر مع محبوبته ويرسم فيه لنفسه صورة الفتى العربي الذي يدفع بصدره المحن ويرد غوائل الأيام ، وقد تكون وصفا للظعائن التي تحملت وأزمعت على الرحيل ، وبكاء خلفها وقصّا لما كان من أمرها وأمر الشاعر معها في حكاية صغيره أو ما يشبه الحكاية ، ولكل مقدمة صورتها العامة التي تشركها فيها أخواتها وملامحها الخاصة التي تتميز بها عن سواها ، يتخلص منها الشاعر الى ناقته ، وتختلف وسائل التخلص اختلافا يكاد لا يحكمه أمر ، فيرحلها ضاربا في المفاوز معتسفا الفلوات والقفار ، ويصفها وصفا معنويا أحيانا قليلة ووصفا حسيا في أغلب الأحيان ثم يمضي – غالبا – فيشبهها بالثور الوحشي ويحكي لنا أطرافا من أخبار هذا الثور ، أو بحمار الوحش ويقص لنا جانبا أو أكثر من قصته ، أو بالظليم (ذكر النعامة) فتقف على طائفة من دقائق حياته وأسرارها ، وقد يشبه الشاعر ناقته بأكثر من حيوان في قصيدة واحدة ، فإذا فرغ من رحلته في الصحراء صار الى موضوع القصيدة ، أو غرضها الأساس كالمديح أو الهجاء أو الفخر أو غيرها ، وربما تخلص الشاعر من مقدمته وانصرف الى الظعائن يرقبها بطرفه وقلبه ، ينجد معها حيث تنجد ، ويغور حيث تغور ، ويصف لنا شكلها والطير التي تتبعها والأرضين التي تقطعها ، وقد يلحق بها على ناقته ، ويقف على مقربة من الهوادج يصف صواحبها ويجاذبهن أطراف الحديث . فإذا فرغ من أمر الظعائن خرج الى الغرض والموضوع الأساس للقصيدة ، وهذا يعني أن الحديث عن الظعائن قد يأتي في صدر القصيدة فيكون مقدمة لها ، وقد يتأخر قليلا فيلي المقدمة ، وليس الحديث عن الناقة أو الظعائن – أو عن كليهما – قيدا فنيا لا يملك الشاعر أن يحيد عنه حين يتخلص من مقدمته . فثمة صور أخرى – كالحديث عن السحاب أو الفرس أو الانتقال المباشر الى المديح أو الهجاء أو غيرهما من الموضوعات – وحديث الشاعر عن الناقة على اختلاف صوره ، وحديثه عن الظعائن على اختلاف مكانه من القصيدة هما ما يمكن أن نسميه بـ (الرحلة في القصيدة الجاهلية) ، وهذا يعني أن الرحلة ضربان :

١- رحلة الشاعر على ناقته .

٢- رحلة الظعائن .

ويختتم الشاعر قصيدته في الغالب بأبيات يلخص فيها تجربته الشعرية وهي عبارة عن حكم شاردة وتأمل في هذه الدنيا وغاية الإنسان فيها ومصيره وخبر من باد من الناس أو هلك من الغابرين ، هذا هو نظام القصيدة ونسقها العام ، ولكل جزء من أجزاء القصيدة نظام خاص وعرف – عند الشعراء - متّبع فلنقف عند كل جزء من هذه الأجزاء بادئين بالمطلع :

المطلع :

المطلع – وقد يسمى أيضا الاستهلال أو الافتتاح - البيت الأول الذي يستهل الشاعر به قصيدته ، فقد انصرفت عناية الشعراء منذ القديم الى الاهتمام بمطالع قصائدهم ، لأنها أول ما تفاجأ السامع فلابد أن يكون لها وقع حسن ، ولذلك فقد حمد النقاد للشعراء مطالعهم الحسنة التي تكون واضحة سهلة المأخذ مع القوة والجزالة ، وقد لاحظوا كذلك التناسب بين الصدر والعجز وترابط المعنى بينهما ، وكذلك لاحظوا مناسبة المطلع لموضوع القصيدة ، فإذا كان المقام مقام حزن كان الأولى بالمطلع أن ينبئ بذلك من أول بيت ، وإذا كان المقام مقام تهنئة أو مديح كرهوا الابتداء بما يتشاءم به ، مثل قول جرير في مديح عبد الملك بن مروان : أتصحو أم فؤادك غير صاح ... فقال له عبد الملك : ((بل فؤادك ياابن الفاعلة ، فقد ساءه هذا المطلع ، مع أن عبد الملك يعلم أن الشاعر يخاطب نفسه ، وكذلك وقع فيما وقع فيه جرير ، حين دخل على عبد الملك وأنشده قوله : ما بال عينك منها الماء ينسكب ...

وكانت بعين عبد الملك ريشة وهي تدمع أبدا ، فتوهم أنه خاطبه أو عرضّ به ، فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل ، فمنعه وأمر بإخراجه ، وكذلك كان أمر أبي النجم العجلي مع هشام بن عبد الملك حين أنشده أرجوزته :

والشمس قد كادت ولما تفعل كأنها في الأفق عين الأحول

وكان هشام أحول ، فأمر به فحجب عنه مدة .

وقد مدحوا المطالع التي تناسب الحال والمقام ، كقول أوس بن حجر في ابتداء مرثيته :

أيتها النفس اجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وكذلك قول النابغة الذبياني الذي صوّر خوفه من النعمان وخوالجه النفسية في قصيدة الاعتذار فبدأها بقوله :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

التخلص :

التخلص : البيت الذي ينتقل به الشاعر من موضوع الى موضوع آخر دون خلل أو انقطاع ودون أن يشعر السامع أو القارئ بهذا الانتقال ، فالشاعر المجيد هو الذي يحسن الانتقال ، فيغادر موضوعه الأول الى الذي يليه دون خلل أو انقطاع ، ويجعل معانيه تنساب الى الموضوع الآخر انسيابا بحيث لا يشعر قارئه بالنقلة ، بل يجد نفسه في موضوع جديد هو استمرار للأول وامتداد له ، وبين الموضوعين تمازج والتئام وانسجام . وهنالك أساليب كثيرة في التخلص والانتقال ، مثل الاستفهام والإشارة وبعض الحروف كالفاء والواو ورب وبل ، ومن أمثلة الانتقال بالإشارة قول لبيد :

تلك ابنة السعدي أضحت تشتكي لتخون عهدي والمخانة ذام

وبالإشارة والاستفهام معا قوله :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها

وقد يتخذ الانتقال شكل التساؤل ، وبخاصة في سياق رحيل الأحبة ، كقول عنترة :

هل تبلغني دارها شدنية لعنت بمحروم الشراب مصرّم

وقد يتخذ الشعراء الجاهليون الانتقال المفاجئ بالقطع ، وذلك بأن يقول : (دع ذا) أو(فدعها) أو (عد عن ذا) ، وهذه أساليب ليست مما تمدح في انتقالاتهم ، كقول الأعشى بعد أن كان يتحدث عن صاحبته انتقل الى الناقة فجأة :

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة تزيّد في فضل الزّمام وتعتلي

وقول المثقب العبدي :

فسلّ الهم عنك بذات لوث عذافرة كمطرقة القيون

الخاتمة :

الخاتمة : الأبيات الأخيرة من القصيدة التي يلخص بها الشاعر تجربته الشعرية ، والتي غالبا ما تتضمن حكما شاردة وتأملاته في الحياة والموت ومصير الإنسان وما الى ذلك من الموضوعات التي تشغل باله . وقد لاحظ النقاد أن لخاتمة القصيدة أثرا في النفس ووقعا مهما ، لأنها آخر معنى يبقى في الأذهان ، وفي الشعر الجاهلي نهايات أعجبت النقاد قديما ، من ذلك قول تأبط شرّا :

لتقرعنّ علي السنّ من ندم إذا تذكرت يوما بعض أخلاقي

وكذلك يعجبهم انتهاء الشنفرى في قوله :

وإني لحلو إن أريد حلاوتي ومرّ إذا نفس العزوف أمـــــرّت

أبيّ لما آبى قريب مقادتـــي الى كل نفس تنتحي في مسرتـي

فقد جمع خلاصة فخره في هذين البيتين بلفظ حسن ومعنى واضح .